مجلة جامعة الملك سعود، م ٢، الآداب (١)، ص ص ٧٥ ـ ١١٥ (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)

ظاهرة التّبادل بين المفرد والمثنى والجمع

دفع الله عبدالله سليمان

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. إذا نظرنا إلى اللغات غير العربية، فإنّنا نلاحظ أنّها تُميّز بين المفرد والجمع، وتتخذ لذلك أشكالاً مختلفة؛ أما العربية فنجدها تتخذ لهذه الفكرة ثلاث صيغ، واحدة للمفرد وأخرى للمثنى وثالثة للجمع.

وعند النظر في شواهد العربية نجد تبادلاً بين المفرد والمثنى من جهة، وبين المفرد والجمع من جهة ثانية، وبين المثنى والجمع من جهة ثالثة، وفي ذلك خروج عن مقتضى الظاهر. وقد ركّز البحث على المعاني والأسباب التي أدّت إلى هذا الخروج، وأورد الشواهد الكثيرة التي تثبت ذلك، وخلص في النهاية إلى أن ظاهرة التبادل بين المفرد والمثنى والجمع تثبت بوضوح ما تتمتّع به قواعد العربية من مرونة واتساع، ومن تنوّع في التعبير عن المراد، ومن اهتمام بالمعنى واستقامته.

تمهيـــد

من الملاحظ أن قواعد اللغة العربية فيها كثير من مظاهر المرونة، مثال ذلك ما نجده في أجزاء الجملة العربية من جواز التقديم والتأخير، ومن الذّكر والحذف، ومن التّنوع في طرق الأداء، ومن التضّمين والحمل على المعنى، ومن الموافقة لمقتضى الظاهر ومن المخالفة له، ومن التأويل والتقدير في الإعراب. وإذا كان الاشتقاق ميزة تعتزّ بها اللغة العربية، فإن المرونة التي نلمحها في كثير من القواعد النحوية تثبت عظمة هذه اللغة.

وقد كان لحرية التعّبير التي كان يتمتع بها العربي أثر كبير في لغته وفي مرونتها. ومن مظاهر المرونة في قواعد اللغة ظاهرة التبادل التي يمكن تطبيقها على كثير من المسائل النحوية.

سبق أن كتبت بحثًا عن ظاهرة التبادل بين المصدر واسمي الفاعل والمفعول؛ أمّا الآن فإني أحاول الحديث عن ظاهرة التبادل بين المفرد والمثنى والجمع.

إن الظاهرة التي يدرسها هذا البحث تحت عنوان «التبادل بين المفرد والمثنى والجمع» قد وردت في مصطلحات متعددة في التراث اللغوي والنحوي. فعند ابن جنّي والزمخشري مثلاً تسمى (الحمل على المعنى[١]) وعند ابن الشّجري تسمى (بظاهرة الاستغناء)[٢] كما أنّ السّيوطي في المزهر يدرس هذه الظاهرة تحت باب عنوانه (معرفة خصائص اللغة).[٣] وبالمثل فإن عددًا من الدراسات المحدثة قد تناولت الظاهرة تحت عناوين مختلفة.

وبعد النّظر فيما سبق استخدامه من مصطلحات أو هو فيما بين أيدينا من مصطلحات معاصرة رأيت أن أدرس هذه الظاهرة تحت عنوان (التّبادل). وهو في معناه لا يخرج عن مفهوم (الحمل على المعنى) أو (الاستغناء) أو سواهما مما ورد من مصطلحات.

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جني، *الخصائص*، حقّقه محمد علي النجار، مج٢، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢م (بيروت، لبنان: دار الهدى للطباعة والنشر)، ص ٤١١. وانظر: جار الله أبوالقاسم محمود بن عمر الزّمخشري، *الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّنزيل*، مج٢ (بيروت: دار الفكر للطباعة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٤٣٤.

(٢) ضياء الدين أبوالسعادات هبة الله بن علي، ابن الشّجري، *الأمالي الشجّرية*، مج١ (بيروت: دار المعرفة للطّباعة والنّشر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، ص١٢.

(٣) أبو الفضل عبدالرحمن بن الكمال أبوبكر جلال السّيوطي، *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*، تحقيق محمد أحمد جادالمولى، محمد أبوالفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مج١، ط٤ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص٣٣٣.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أنّ كلّ لغة تميّز بين المفرد والجمع وتتّخذ لذلك أشكالاً مختلفة،[٤] وأنّ اللغة العربية تتخذ لهذه الفكرة ثلاث صيغ، واحدة للمفرد، وأخرى للمثنى وثالثة للجمع. وحين البحث في نصوص اللغة العربية وجدت تبادلاً بين المفرد والمثنى من جهة وبين المفرد والجمع من جهة ثانية وبين المثنى والجمع من جهة ثالثة، وفي ذلك خروج عن مقتضى الظاهر، ولم يكن هذا الخروج عبثًا، وإنما كان وراء ذلك كله معانٍ وأغراض وعلل سنكشف عنها — بمشيئة الله — في خاتمة هذا البحث. وقد رأيت أن أقسم هذا البحث على النحو التالي:

أولاً: التبادل بين المفرد والمثنى

ثانيًا: التبادل بين المفرد والجمع

ثالثًا: التبادل بين المثنى والجمع

أولاً: التبادل بين المفرد والمثنى

١ ـ وضع المفرد موضع المثنى

عقد الثّعالبي فصلاً في الجمع بين اثنين ثم ذكر أحدهما بالكناية دون الآخر، والمراد به كلاهما معًا فيقول[٥]: «من سنن العرب أن تقول رأيت عمرًا وزيدًا وسلّمت عليه أي عليهما.» كما أشار ابن يعيش إلى أن الشيء إذا كان واحدًا في الجسم كالرّأس والظهر فيجوز أن تأتي به مفردًا. يمكنك أن تقول: ما أحسن رأسهما وضربت ظهر الزيدين.[٦] وربما استغنوا في هذا النحو بواحد ـ كما قال ابن الشجري، لأن إضافة العضو إلى اثنين تنبىء عن المراد كقولك ضربت رأس الرجلين، وشققت بطن الحملين.[٧] وقال الفرّاء، «ويجوز

---

(٤) إبراهيم أنيس، من *أسرار اللغة*، مج٣ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، ١٩٦٦م)، ص١٣٨.

(٥) أبومنصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثّعالبي، *فقه اللّغة وسرّ العربية*، تحقيق مصطفى السّقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي (القاهرة: مصطفى الحلبي، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، ص٣٣٨.

(٦) موفّق الدّين يعيش بن علي، ابن يعيش، *شرح المفصّل*، مج٤ (بيروت: عالم الكتب، القاهرة، مكتبة المثنى، د.ت)، ص١٥٦.

(٧) ابن الشّجري، *الأمالي الشّجرية* (حيدر أباد: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٤٩هـ)، مج١، ص١٢.

في الكلام أن تقول: ائتني برأس شاتين ورأس شاة، فإذا قلت برأس شاة فإنما أردت رأسي هذا الجنس، وإذا قلت برأس شاتين فإنك تريد به الرأس من كل شاة.»[٨]

وعلى أية حال فإنّ التعبير بالمفرد عن المثنى موجود بكثرة في القرآن الكريم والشعر.

وإذا كان التّعبير بالمفرد أو ضميره عن المثنى أو ضميره موجودًا في أقوال العرب فإننا نلاحظ ذلك بكثرة في القرآن الكريم، قال الله تعالى ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾[٩] «فقد خاطب الله آدم وحوّاء ثم نص في إتمام الخطاب على آدم وأغفل حوّاء.»[١٠] والعلّة في ذلك كما وضّحها الزمخشري: «وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما في الخروج، لأن في ضمن شقاء الرجل — وهو قيم أهله وأميرهم — شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها... أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت، وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه.[١١] ويبدو لي أن رأي الزمخشري في تفسيره لهذه الآية وجيه، على الرغم من أن بعض العلماء — ومنهم الفراء[١٢] يرون أن المخاطب في الفعل (فَتَشْقَى) هو آدم وحده.

وفي نظري أن الخروج من الجنة لا يسبب الشقاء لآدم وحده، وإنّما لهما معًا والذي يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.[١٣] أضف إلى ذلك أن الله نص في بداية الآية على الاثنين معًا فقال ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾. كما

---

(٨) أبو زكريّا يحيى بن زياد الفرّاء، *معاني القرآن*، مج١، ط٣ (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، ص٣٠٨.

(٩) سورة طه، آية رقم ١١٧.

(١٠) الثّعالبي، *فقه اللّغة*، ص ٣٤٣.

(١١) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل*، مج٣ (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ص ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

(١٢) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج٢، ص ١٩٣.

(١٣) سورة الأعراف، آية رقم ١٩.

أورد بعضًا من الأفعال بصيغة المثنى في الآيات التي تلت هذه الآية، لهذا يبدو لي أن الكلام — كما قال الزمخشري — قد اختصر بإسناده إليه دونها.[١٤] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١٥]، قال الفرّاء: «ولم يقل ينفقونها، فإن شئت وجهت الذهب والفضة إلى الكنوز فكان توحيدها من ذلك، وإن شئت اكتفيت بذكر أحدهما من صاحبه...»[١٦]

وقال الزّمخشري، : «فإن قلت: لِمَ قِيلَ: ولا ينفقونها وقد ذُكِرَ شيئان؟ قلت: ذهابا بالضمير إلى المعنى دون اللفظ، لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدّة كثيرة ودنانير ودراهم... وقيل ذهب به إلى الكنوز، وقيل إلى الأموال، وقيل: معناه ولا ينفقونها والذهب.»[١٧] وقال الله تعالى أيضًا: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾[١٨]. فأفرد الضمير على الرغم من أنه راجع لشيئين والتقدير انفضوا إليهما.

قال الزمخشري مبيّنًا العلة في ذلك: «فإن قلت كيف قال ﴿إليها﴾ وقد ذَكَر شيئين، قلت: تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا انفضوا إليه: فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وكذلك قراءة من قرأ: لَهْوًا وَتِجَارَةً انْفَضُّوا إِلَيْهَا، وقُرِئَ إِلَيْهِمَا.»[١٩]

وقال الفراء: «فجعل الهاء للتجارة دون اللهو... ولو قيل انفضّوا إليه يريد اللّهو كان صوابًا، كما قال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾[٢٠]، ولم يقل بها، ولو قيل بهما وانفضّوا إليهما كما قال: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ — كان صوابا.

---

(١٤) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٣، ص ٩٣.
(١٥) سورة التوبة، آية رقم ٣٤.
(١٦) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج١، ص ٤٣٤.
(١٧) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٢، ص ٢٦٨.
(١٨) سورة الجمعة، آية رقم ١١.
(١٩) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٤، ص ٥٣٧.
(٢٠) سورة النساء، آية رقم ١١٢.

وأجود من ذلك في العربية أن تجعل الراجع من الذكر للآخر من الاسمين، وما بعد ذا فهو جائز، وإنما اختير في: انْفَضُّوا إلَيْهَا في قراءتنا وقراءة عبدالله، لأن التجارة كانت أهم إليهم وهم بها أسرّ منهم بضرب الطّبل، لأنّ الطّبل إنّما دلّ عليها فالمعنى كلّه لها.»(٢١)

وفي نظري أنّ هناك تبادلاً بين المثنى والمفرد في هذه الآية، وذلك للأسباب الآتية:

(١) أنّه تقدّم شيئان هما: التّجارة واللّهو، فكان المفروض حسب القواعد النحوية أن يرجع إليهما ضمير المثنّى. وفي إتيان الضّمير مفردًا بدلاً من إتيانه مثنّى خروج عن مقتضى الظّاهر الذي أرمي إليه.

(٢) إنّ الضّمير كان ينبغي أن يرجع إلى أقرب مذكور وهو اللّهو، ولكنّه رجع في هذه القراءة إلى التجارة لأهميّتها، وهذا ما سأشير إليه في الخاتمة من أنّ المفرد أو ضميره يحلّ محلّ المثنّى أو ضميره لأهميّة المفرد وتعظيمه.

(٣) أضف إلى ذلك أنه قُرِئَ (إلَيْهِمَا)(٢٢) بإعادة الضمير للتّجارة واللّهو معًا. وقال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾(٢٣) قال الفرّاء: «وَلَمْ يَقُلْ: وقدرهما، فإن شئت جعلت تقدير المنازل للقمر خاصة لأن به تَعَلّم الشّهور. وإن شئت جعلت التقدير لهما جميعًا، فاكتفى بذكر أحدهما من صاحبه.(٢٤) وفي نظري أنَّ الرَّأي الأول هو الأولى، لأنّ الله سبحانه وتعالى نصَّ على تعلّم السنين والحساب بمنازل القمر حين قال ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.(٢٥)»

---

(٢١) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج٣، ص ١٥٧.
(٢٢) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٤، ص ٥٣٧.
(٢٣) سورة يونس، آية رقم ٥.
(٢٤) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج١، ص ٤٥٨.
(٢٥) سورة يونس، آية رقم ٥.

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٢٦] والمراد أن يرضوهما، وقال تعالى أيضًا: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[٢٧] فلم يُثَنّ الله سبحانه كلمة ﴿رَسُولُ﴾ في هذه الآية كما ذكرها مثنّاة في قوله ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.[٢٨] قال الأخفش: «وهذا يشبه أن يكون مثل العدوّ وَتَقُولُ هُمَا عَدُوٌّ لي.»[٢٩] وقال رسول الله ﷺ: «... فَلا تَفْعَلْ، صُمْ وافْطُرْ وقُمْ ونَمْ فَإنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا...»[٣٠]، أي لعينيك.[٣١]

أمّا في الشعر فقد كثر وروده ولم يقتصر على شعر عصر بعينه، قال بشر بن خازم[٣٢]:

فَرَجِّـي الخَـيْرَ وانْـتَـظِري إيَابي ... إذَا مَا الْـقَـارِظُ الْـعَـنْـزِيُّ أَبَـا

«وإنما هما قارظان من عنزة، وإنما قالوا كذلك، لأنّهما صارا كالشّيئين اللذين لا يُغني أحدهما عن الآخر، فإنّما يعبّر عنهما بصيغة المفرد»[٣٣]

وقال امرؤ القيس[٣٤]:

لِمَنْ زَحْلُوقَةٌ زُلّ ... بِهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُ

---

(٢٦) سورة التوبة، آية رقم ٦٢.

(٢٧) سورة الشعراء، آية رقم ١٦.

(٢٨) سورة طه، آية رقم ٤٧.

(٢٩) أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي الأخفش الأوسط، *معاني القرآن*، تحقيق فائز فارس، مج٢، ط٨ (الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص٤٢٦.

(٣٠) أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، *صحيح البخاري*، مج٢ (استانبول: المكتبة الإسلامية، ١٩٨١م، الناشر: محمد أوزدمير)، كتاب الصوم، الحديث رقم ٥٥.

(٣١) ابن عصفور الإشبيلي، *ضرائر الشّعر*، تحقيق: السيد إبراهيم محمد، ط١ (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٨٠م)، ص٢٥١.

(٣٢) قاله بشر لابنته عند الموت، انظر: ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين بن مكرم، *لسان العرب*، (القاهرة: دار المعارف، د.ت) مادة قرظ؛ وانظر: خازم، *ديوان بشر بن خازم الأسدي*، تحقيق عزّة حسن، ط ٢ (دمشق: منشورات وزارة الثّقافة، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ص٢٦.

(٣٣) أحمد مطلوب، *القزويني وشروح التلخيص*، ط١ (بغداد: مكتبة النهضة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ص٥٥٣.

(٣٤) امرؤ القيس بن حجر الكندي، *ملحقات ديوان امرىء القيس*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، =

فقال: تَنْهَلُ ولم يقل تَنْهَلاَنِ.

وقال امرؤ القيس أيضًا(٣٥):

وعــين لَهَا حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ شَقَّــتْ مَآقِــيهِــمَا مِنْ أُخَــر

وضَّح ابن عصفور التعبير بالمفرد عن المثنى في هذا البيت بقوله(٣٦): «يريد: وعينين، ولـذلـك عاد عليهـا ضمير اثنين، فإنّ ذلك ليس من قبيل الضّرائر، لأنّ وضع الشّيئين المتلازمين من نحو العينين واليدين والرِّجلين جائز في الكلام والشعر.» ومثله قول سلمى بن ربيعة السيدي(٣٧):

وَكَــأنّ في الْعَيْنَــيْنِ حَبَّ قَرَنْفُــلٍ أو سَنْــبــلاً كَحَــلَتْ بِهِ فانْهَلّتِ

فقد أسند الفعلَين (كحل وانهل) إلى ضمير الغائب المفرد مع أن المتقدم مثنى وهو كلمة العينين.

ومن ذلك قول الفرزدق(٣٨):

وَلَــوْ بِخَــلَتْ يَدَايَ بِهَا وَضَــنَّــتْ لَكَــانَ عَلَيَّ لِلْقَــدَرِ الْخِــيَارُ

فقد أسند الفعل (ضَنَّت) إلى ضمير الغائب المفرد مع أنّ المتقدّم مثنى وهو كلمة (يَدَايَ).

ط٢ (القـاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م)، ص٤٧٢؛ وانظر: البغدادي، *خزانة الأدب*، تحقيق هارون (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٦٧م)، مج٧، ص ص ٥٥٢، ٥٥٦؛ وانظر: ابن منظور: *لسان العرب* (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٥٦م/١٣٧٥هـ).

(٣٥) الكندي، *ديوان امرىء القيس*، ص ١٦٦.

(٣٦) ابن عصفـور الإشبيلي، *ضرائـر الشعر*، تحقيق السيد إبراهيم محمد (بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٠م)، ص٢٥١.

(٣٧) أبوعلي بن الحسن المرزوقي، شرح *ديوان الحماسة لأبي تمام*، نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون، ط١ (القـاهـرة: لجنـة التـأليف والـترجمـة والنشر، ١٣٧١هـ/١٩٥١م)، ص٥٤٧؛ وانـظر: البغدادي، *خزانة الأدب*، مج٧، ص٥٥٧.

(٣٨) أبـو فراس همّام بن غالب بن صعصعة الفرزدق، *ديوان الفرزدق*، مج١ (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، ص ٢٩٤. ورواية صدر البيت في الديوان هكذا: وَلَوْ رَضِيَتْ يَدَايَ بِهَا وَقَرَّتْ...

وقول المعرّى: (٣٩)

كَأنّ أُذْنَيْه أعْطَتْ قَلْبَهُ خَبَرًا عَنِ السَّمَاءِ بِمَا يُلْقَى مِنَ الغِيَرِ

قال الألوسي: «فإن قلت كيف لم يبرز الضمير في أعطت مع إسناده إلى ضمير الاثنين قلت: إما لأنه قد نزّل العضوين منزلة عضو واحد، لأنّ المقصود بهما منفعة واحدة... وإمّا لأنه قد عامل المثنى معاملة الجمع.»(٤٠)

وقد ورد مثل ذلك في شعر المتنبي كثيراً، انظر إليه حين قال: (٤١)

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بِأَنَّنِي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

أي تسعى به قدمان، قال أيضًا: (٤٢)

وتُعْجِبُنِي رِجْلاَكَ في النَّعْلِ إنَّني رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إذْ كُنْتَ حَافِيَا

فقد أفرد النَّعلَ وحقُّها أن تكون مثناة، وقال أيضًا(٤٣)

حَشَايَ عَلَى جَمْرٍ ذَكِيٍّ مِنَ الْغَضَى وَعَيْنَايَ في رَوْضٍ مِنَ الْحُسْنِ تَرْتَعُ

«ولم يقل تَرْتَعَانِ، لأنّ حكم العينين حكم حاسّة واحدة ولا تكاد تنفرد إحداهما برؤية دون الأخرى فاكتفى بضمير الواحدة.»(٤٤)

---

(٣٩) أبو العلاء المعري، أحمد بن سليمان بن عبدالله، *شروح سقط الزند*، السّفر الثاني، ق١ (القاهرة: دار الكتب، ١٩٤٥م)، ص١٤٦.

(٤٠) السيد محمد شكري الألوسي، *الضّرائر الشّعريّة وما يسوغ للشّاعر دون النّاثر*، شرحه محمد بهجة الأثري (القاهرة: المطبعة السلفيّة، ١٣٤١هـ)، ص٩٠.

(٤١) أبو الطيب أحمد بن الحسين، *ديوان المتنبي* (بيروت: دار بيروت وصادر، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م)، ص٣٣٢.

(٤٢) المتنبّي، *ديوان أبي الطيب المتنبي*، شرح العكبري ضبط وتصحيح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، مج١، ص٢٩٥.

(٤٣) المتنبي، *ديوان*، مج١، ص ٢٣٥.

(٤٤) الألوسي، *الضرائر*، ص ٨٩.

وقال حسّان بن ثابت: (٤٥)

إنّ شَرْخَ الشَّبَـابِ والشَّعَـرِ الأَسْـ ـوَدَ مَالَمْ يُعَـاصِ كَانَ جُنُـونَـا

بيّن ابن الشَّجري السّبب الذي جعل الشَّاعر يأتي بالضمير مُفردًا مع تقدّم شئين حين قال: «قال: ما لم يعاص، فأفرد الضّمير وإن كان لاثنين؛ وذلك لأنّ كلّ واحد منهما بمنزلة الآخر فجريا مجرى الواحد، ألا ترى أنّ شرخ الشّباب هو اسوداد الشّعر ولولا أنّهما لاصطحابهما صارا بمنزلة المفرد كان حقّ الكلام أن يقال: يعاصيا. . .»(٤٦)

قال عبدالقادر البغدادي: «قال أبو حيّان في تذكرته، قال أبو عمرو: إذا كان الاثنان لا يكاد أحدهما ينفكُّ من الآخر مثل اليدين والرّجلين والخُفّين، فإن تقدّم مثنّاه جاز ذلك في الشعر والكلام أن توحّد صفته فتقول: خفّان جديد وجديدان وعينان ضخمة وضخمتان؛ لأن الواحد يدّل على صاحبه إذا كان لا يفارقه.»(٤٧)

ووضع المفرد موضع المثنّى كثير في الشعر، وبخاصة في النوع الذي يتميز فيه أحدهما بصفات لا تنطبق على الآخر مثل قول الفرزدق: (٤٨)

أَغِثْنِي بِكُنْهِي فِي نِزَارٍ ومُقْبِلِي فَإِنِّي كَرِيمُ الْمَشْرِقَيْنِ وَشَاعِرُه

ألا ترى أن الضّمير في كلمة (شَاعِرُه) مفرد مع أنه عائد على اثنين، وكان الوجه أن يقول: شاعرهما، ومن ذلك قول الشّاعر: (٤٩)

إنِّي ضَمِنْتُ لِمَنْ أَتَانِي مَاجَنَى وأَبِي وَكَانَ وَكُنْتُ غَيْرَ غَدُورِ

قال الفرّاء: «ولم يقل غدورين، وذلك لاتفاق المعنى يكتفى بذكر الواحد.»(٥٠)

---

(٤٥) حسّان بن ثابت، *ديوان حسّان بن ثابت*، تحقيق سيّد حنفي حسنين (القاهرة: وزارة الثقافة، المكتبة العربية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص ١٨٠.

(٤٦) ابن الشّجري، *الأمالي الشجريّة*، مج١، ص ٣٠٩.

(٤٧) البغدادي، *خزانة الأدب*، مج٧، ص ٥٥١.

(٤٨) الفرزدق، *ديوان الفرزدق*، مج١، ص ٢٥٠.

(٤٩) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج١، ص ٤٣٤.

(٥٠) الفرّاء، *معاني القرآن*، مجـ١، ص ٤٣٤.

ومن ذلك قول الشّاعر:(٥١)

كَأَنَّــهُ وَجــهُ تُرْكِـيَّيْنِ قَدْ غَضِـبَــا مُسْتَهْــدِفٌ لِطِعَــانٍ غَيْرِ مُنْحَجِـرِ

قال البغـدادي: «على أنه إذا أضيف الجزءان لفظًا ومعنى إلى متضمّنهما المتّحدين بلفظ واحـد، فلفظ الإفراد في المضاف أولى من التثنية كما في البيت، فإنّ (تُرْكِيَّيْنِ) متضمنّان ولفـظهـما متحد لجزأيهما وهما الوجهان، فإنّ وجه كلّ أحد جزء منه، فلما أضيف إليهما، أضيف بلفظ المفرد وهو الوجه، وهذا أولى من أن يقول: كأنّه وجهَا تركيين.(٥٢)»

وقد أشار ابن الشّجري في كتابه *الأمالي*،(٥٣) وابن عصفور في كتابه *الضّرائر*(٥٤) إلى أنّ مثل هذا لا يستعمل إلّا في الشّعر. وعلى الرغم من ذلك فقد عارضهما الألوسي حين قال: «والصّحيح أنّه غير مختصّ بالشّعر.(٥٥)»

كل هذا يدل على مرونة اللغة العربية ويشير إلى أن كلّ شيء في هذا يرجع إلى المعنى ووضوحه.

٢ ـ وضع المثنى موضع المفرد

ورد الإتيان بالمثنّى وإرادة المفـرد في كلام العـرب، «تقـول العـرب: افْعَـلَا ذلك

---

(٥١) ابن يعيش، *شرح المفصّل*، مج٤، ص ١٥٦. وأشار البغدادي في *الخزانة* (مج٧، ص ٥٤٠) إلى أن البيت الشاهد: قافيته رائية لا بائية ونسبه للفرزدق، وهو من قصيدة يهجو بها جريرًا ومطلعها:

مَا تَأْمُرُونَ عِبَادَ الله أَسْأَلُكُمْ بِشَاعِرٍ حَوْلَهُ دُرّجَان مُخْتَمَر

وقافية البيت في الديوان رائية وهو من قصيدة يهجو بها جريرًا كما أشار البغدادي، ولكن مطلع القصيدة هكذا:

غَرّ كُلَيْباً إِذَا اصْفَرَّتْ مَعَالِقُهَا بِضَيْغَمِيّ كَرِيهِ الْوَجْهِ وَالْأَثَرِ

انظر: شرح *ديوان الفرزدق*، تحقيق عبدالله إسماعيل الصّاوي، مج١ (القاهرة: مطبعة الصّاوي، ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م)، ص٣٧١.

(٥٢) البغدادي، *خزانة الأدب*، مج٧، ص ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

(٥٣) ابن الشّجري، *الأمالي الشّجريّة*، مج١، ص ١٢.

(٥٤) ابن عصفور الإشبيلي، *ضرائر الشّعر*، ص ٢٥١.

(٥٥) الألوسي، *الضّرائر*، ص ٩٨؛ وانظر: البغدادي، *خزانة الأدب*، مج٧، ص ٥٣٨.

والمخاطب واحد[٥٦]»، وتقول: مَا فَعَلْتُمَا يَا فُلَانُ. وقد ورد في القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾[٥٧] فقد لاحظنا أنّه خاطب اثنين ثم جعل النداء لواحد، قال الزمخشري: «خاطب الاثنين ووجّه النداء إلى أحدهما، وهو موسى، لأنه الأصل في النبوة وهارون وزيره وتابعه.»[٥٨]

وعلّل الفرّاء لذلك بقوله: «لأنّ الكلام إنّما يكون من الواحد لا من الجميع، ومثله — مما جعل الفعل على اثنين وهو لواحد — قوله تعالى: ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾[٥٩] وإنما نسيه واحد.»[٦٠]

ويبدو لي أنّ رأي الفراء واضح وصريح في التعبير بالمثنى عن المفرد في هذه الآية، ولهذا نجده قرن هذه الآية بقوله تعالى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾.

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ ﴾[٦١] فوحّد القرين وثنّى في الأمر وهو — كما قال الثعالبي — خطاب لمالك خازن

وقال الزّمخشري: «ألقيا» خطاب من الله تعالى للملكين السّابقين السّابق والشّهيد، ويجوز أن يكون خطابًا للواحد على وجهين: أحدهما قول المبرّد: أنّ تثنية الفاعل نُزّلت منزلة تثنية الفعل لاتّحادهما كأنّه قيل: أَلْقِ أَلْقِ للتّأكيد، والثاني أن العرب أكثر ما يرافق الرّجل

---

(٥٦) الثّعالبي، *فقه اللغة*، ص ٣٤٠.
(٥٧) سورة طه، آية رقم ٤٩.
(٥٨) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٣، ص ٦٧.
(٥٩) سورة الكهف، آية رقم ٦١.
(٦٠) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج٢، ص ١٨٠.
(٦١) سورة ق، الآيتان ٢٣، ٢٤.
(٦٢) الثّعالبي، *فقه اللغة*، ص ٣٤٠.

منهم اثنان فكثر على ألسنتهم أن يقولوا خَلِيلَيّ وصَاحِبَيّ وقِفَا وأَسْعِدَا حَتّى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين. فعن الحجاج أنه كان يقول: حَرَسِي اضْرِبَا عُنُقَه — وقرأ الحسن: أَلْقِيَنْ بالنّون الخفيفة، ويجوز أن تكون الألف في (ألقيا) بدلاً من النّون: إجراءً للوصل مجرى الوقف.»(٦٣) وقال الفرّاء: «العرب تأمر الواحد والقوم بما يُؤمَرُ به الاثنان فيقولون للرّجل: قُومَا عَنّا، وَسِمِعْتُ بَعْضَهُم: وَيْحَك، ارْحَلاَهَا وازْجُرَاها.»(٦٤)

وقال تعالى أيضًا: ﴿فَلَاجُنَاحَ عَلَيْهِمَافِيمَاٱفْتَدَتْ﴾(٦٥) وإذا قيل: فَـ «كَيْفَ قال: فلا جناح عليهما وإنّما الجناح — فيما يذهب إليه الناس — على الزّوج، لأنّه أخذ ما أعطى؟ ففي ذلك وجهان: أن يُرَاد الزّوج دون المرأة وإن كانا قد ذُكِرا جميعًا في سورة الرحمن: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَاٱللُّؤْلُؤُوَٱلْمَرْجَانُ﴾(٦٦) وإنّما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح لا من العذب. ومنه: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾،(٦٧) وإنّما النّاسي صاحب موسى وحده. ومثله في الكلام أن تقول: عندي دابّتان أركبهما وأستقي عليهما وإنّما يركب إحداهما ويستقي على الأخرى، وقد يمكن أن يكونا جميعًا تركبـان ويستقي عليهـما، وهذا من سعة العربية التي يحتجّ بسعتها.»(٦٨) وبالإضافة إلى استعمال المثنى وإرادة المفرد في القرآن الكريم فقد ورد في الشعر كثيراً ومن ذلك قول ابن المعتز:(٦٩)

فَكَـأنَّ كَفَّـيْهِ يُقْـسِـمُ في أقْـدَاحِنَـا قِطَعًـا مِنَ الشَّمْسِ

ودائمًا نجد في الشعر قولهم: يا خَلِيلَيّ، ويا صاحبيّ، والمخاطب واحد، ألا ترى أنّ

---

(٦٣) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٤، ص ٣٨٧.

(٦٤) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج٣، ص ص ٧٨، ٧٩.

(٦٥) سورة البقرة، آية رقم ٢٢٩. وانظر محمد عبدالخالق عضيمة، *دراسات لأسلوب القرآن الكريم*، ق٣، مج١ (القاهرة: مطبعة حسّان، د.ت)، ص ٧٨.

(٦٦) سورة الرّحمن، آية رقم ٢٢.

(٦٧) سورة الكهف، آية رقم ٦١.

(٦٨) الفـرّاء، *معـاني القـرآن*، مج١، ص١٤٧؛ وانظر: عضيمة، *دراسات لأسلوب القرآن*، ق٣، مج١، ص٧٨.

(٦٩) أبـو العبّـاس عبـدالله بن المعتـز بن المتـوكـل، *ديوان ابن المعتـز* (بيروت: دار صادر وبيروت، ١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ص٢٧٠.

امرأ القيس قال: (٧٠)

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقد بيّن الزّوزني كلمة (قفا) في هذا البيت بقوله: «قيل خاطب صاحبيه، وقيل بل خاطب واحدا وأخرج الكلام مُخرج الخطاب مع الاثنين؛ لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع.»(٧١) وقال امرؤ القيس أيضًا: (٧٢)

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُم جُنْدُبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ الْمُعَذَّبِ

ثم قال: (٧٣)

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طِيبًا وإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

قال الفرّاء عن هذا البيت: «فقال: ألم تَرَ فرجع إلى الواحد وأوّل كلامه اثنان...»(٧٤)

قال المتلمّس: (٧٥)

قُولاَ لِعَمْرِو بْنِ هِنْدٍ غَيْرَ مُتَّئِبِ يَا أَخْنَسَ الأَنْفِ والأَضْرَاسِ كَالْعَدَسِ

وقال الآخر: (٧٦)

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ انْزَجِرْ وَإِنْ تَدْعَانِي أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا

«فقد قيل إنّ الألفَ من (قولا) و (تزجراني) ضمير اثنين وضع موضع ضمير الواحد، بدليل

(٧٠) الكندي، *ديوان امرىء القيس*، ص٨.

(٧١) أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني، *شرح المعلقات السبع* (بيروت: دار الثقافة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م)، ص٦.

(٧٢) الكندي، *ديوان امرىء القيس*، ص ٤١.

(٧٣) الكندي، *ديوان امرىء القيس*، ص ٤١.

(٧٤) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج٣، ص٧٩.

(٧٥) أبوزيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، *كتاب جمهرة أشعار العرب*، طبعة منقحة عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٨هـ (بيروت: دار المسيرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص٣٤.

(٧٦) أبو الفضل عبدالرحمن بن الكمال أبوبكر جلال السيّوطي، *الأشباه والنّظائر في النّحو*، حققه طه عبدالرءوف سعد، مج٤ (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص١٨٨؛ وانظر: الزّوزني، *شرح المعلّقات السّبع*، هامش ص٦.

قوله، في البيت الأول (غير متّئب) ولم يقل غير متّئبين، وفي البيت الثّاني (يا ابن عفان) فدلَّ ذلك على أنّه لم يخاطب غيره، وقد قيل: إنّ الألف فيهما بدل من النون الخفيفة في الوصل إجراءً له مُجرى الوقف، والأصل: قوله وَإنْ تَزْجُرَنْ وَإنْ تَدْعُن.»(٧٧)

وقال الفرزدق:(٧٨)

عَشِـيّةَ سَالَ الْمَـرْبِـدَانِ كِلاَهُمَـا عَجَاجَةَ صَوْتٍ بِالسُّيُوفِ الصَّوارِمِ

وإنّما هو مربد البصرة.

وقال الفرزدق أيضًا:(٧٩)

أَلَمْ تَعْلَمُـوا أَنّي ابْنُ صَاحِبِ صَوْأَرٍ وَعِنْـدِي حُسَـامَـا سَيْفِـهِ وَحَمَـائِلُه

يريد حسام سيفه.(٨٠)

ومن ذلك قول عنترة:(٨١)

كَيْفَ الْمَـزَارُ وَقَـدْ تَرَبَّـعَ أَهْلُهَـا بِعُـنَـيْزَتَـيْنِ وَأَهْـلُنَـا بِالْـغَـيْلَمِ

يريد: عنيزة، قال ابن عصفور: «ويكثر ذلك في أسماء الأماكن؛ لأنّ الدّاخل إليها يرى لها وجهين عن يمينه ويساره.»(٨٢)

وفي ذلك مرونة واتساع وتنوع في التّعبير وحمل على المعنى.

---

(٧٧) ابن عصفور، *ضرائر الشعر*، ص ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٧٨) الفـرزدق، *ديوان الفـرزدق*، ص٣١٩؛ وانـظر: ابن عصفـور، *ضرائر الشّعر*، ص٢٥٣، وفي *الدّيوان* (عَجَاجَة مَوْتٍ) بدلاً عن (عَجَاجَة صَوْتٍ).

(٧٩) الفرزدق، *الدّيوان*، ص ١٧٣.

(٨٠) ابن عصفور، *ضرائر الشّعر*، ص ٢٥٣.

(٨١) عنـترة بن شداد العبسي، *أشعـار عنـترة العبسي*، تقـديم وشرح محمد عبدالمنعم خفاجي، ط١ (القاهرة: مطبعة عاطف وسيد طه، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م)، ص٢٢؛ وانظر: الزوزني، *المعلّقات السّبع*، ص٨.

(٨٢) ابن عصفور، *ضرائر الشّعر*، ص٢٥٤.

ثانيًا: التّبادل بين المفرد والجمع

١ ـ وضع المفرد موضع الجمع

ورد التّعبير بالمفرد عن الجمع كثيرًا في كلام العرب. يقولون «لله دَرُّكَ مِنْ رَجُلٍ». (٨٣) «مِنْ» في هذا المثال تفيد التّبعيض عند بعضهم والتّقدير لقد عظمت من الرّجال، فوضع المفرد موضع الجمع، والنّكرة موضع المعرفة للعلم وطلبًا للاختصار»(٨٤)

ومن سنن العرب قولهم «قَرَرْنَا بِهِ عَيْنًا»(٨٥) أي أعينًا، قال سيبويه: «وقررنا به عينًا وإن شئت قلت: أعينًا وأنفسًا كما قلت: ثلاثمائة وثلاث مئين أو مئات»(٨٦) وقولهم: هُوَ أَحْسَنُ الْفِتْيَانِ وأَجْمَلُهُ ـ جاء الضّمير في كلمة (أَجْمَلُهُ) مفردًا مع أنّه يعود إلى جمع، «لأنّ هذا موضع يكثر فيه الواحد كقولك: هُوَ أَحْسَنُ فَتىً في النّاسِ». (٨٧) ومثل ذلك قولهم: «كُلُّ رَجُلٍ يَفْعَلُ هَذَا» الأصل كُلُّ الرِّجَالِ يَفْعَلُ هَذَا،(٨٨) ومثل ذلك قولهم ثَلَاثِمائة إلى التّسْعِمائة.

قال سيبويه: «وأمّا ثلاثمائة إلى تسعمائة فكان ينبغي أن تكون في القياس مئين أو مئات، ولكنّهم شبّهوه بعشرين وأحد عشر، حيث جعلوا ما يُبَيّنُ به العدد واحدًا، لأنّه اسم لعدد كما أنّ عشرين اسم لعدد وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللّفظ واحدًا والمعنى جميع حتى قال بعضهم في الشّعر ما لا يستعمل في الكلام.»(٨٩) وهذا ما ذهب إليه المبرّد

---

(٨٣) السّيوطي، *الأشباه والنّظائر*، مج١، ص ٣٠.
(٨٤) السيوطي، *الأشباه والنظائر*، مج١، ص ٣٠.
(٨٥) الثّعالبي، *فقه اللغة وسر العربية*، ص ٣٣٩.
(٨٦) أبوبشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (بيروت: عالم الكتب، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص ص ٢١٠ ـ ٢١١.
(٨٧) ابن جني، *الخصائص*، مج٢، ص ٤١٩.
(٨٨) السّيوطي، *الأشباه والنظائر*، مج١، ص ٣٠.
(٨٩) سيبويه، *الكتاب*، مج١، ص ٢٠٩.

حين قال: «وقد جاز في الشّعر أن تفرد وأنت تريد الجماعة إذا كان في الكلام دليل على الجمع.»(٩٠)

وقال ابن يعيش: «ومما شذّ عن ذلك قولهم ثَلاَثِمائة: يريد أنّه شاذّ عن القياس، وأما من جهة الاستعمال فكثير مطّرد.»(٩١)

وهذا الذي جعله سيبويه والمبرّد والزّمخشري جائزًا في الضّرورة جعله الفرّاء جائزًا في الكلام غير مختص بالشّعر،(٩٢) ويؤيّده في ذلك ابن جنّي(٩٣) والبغدادي حين قال: «الصّحيح أنّه غير مختص بالشّعر.»(٩٤)

وعلى أيّة حال فقد ورد التعبير بالمفرد عن الجمع كثيرًا في القرآن الكريم وفي الشعر.

أمّا في القرآن الكريم فقد ورد التعبير بالمفرد عن الجمع في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾(٩٥) قال الفرّاء: «يريد: أعوان، ولم يقل ظهراء،»(٩٦) وقال الزّجّاج: «الملائكة بعد ذلك ظهير، أي ظهراء.»(٩٧)

وقال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾،(٩٨) قال صاحب اللسان: «أي رُفَقَاء، فهو

---

(٩٠) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، *المقتضب*، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، مج٢ (بيروت: عالم الكتب، ١٩٦٣م)، ص ١٧١.

(٩١) ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٦، ص ٢١.

(٩٢) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج١، ص ٣٠٧؛ مج٢، ص ١٠٢؛ وانظر: البغدادي، *خزانة الأدب*، مج٧، ص ٥٦١.

(٩٣) البغدادي، *خزانة الأدب*، مج٧، ص ٥٦٢.

(٩٤) البغدادي، *خزانة الأدب*، مج٧، ص ٥٣٨.

(٩٥) سورة التحريم، آية رقم ٤.

(٩٦) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج٣، ص ١٦٧.

(٩٧) *اللسان*، مادة (ظهر).

(٩٨) سورة النساء، آية رقم ٦٩.

مثل ظهير في معنى ظهراء أفرد في موضع الجمع.»[٩٩] وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١٠٠] أي أعدائي. وقال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى ﴾ أي أضيافي.[١٠١]

ويمكننا أن نقول: إنّ التّبادل بين المفرد والجمع ليس قويًّا في الآيات السّابقة التي وردت فيها مصادر أو جاءت فيها صيغتا فعيل وفعول، وذلك لأنّ المصدر يجوز أن تتركه مفردًا وتصف به المفرد والمثنّى والجمع والمذكّر والمؤنث فتقول مثلاً: هَذَا رَجُلٌ عَدْلٌ، وهَذَان رَجُلانِ عَدْلٌ، وهَؤلاءِ رِجَالٌ عَدْلٌ، وَنِسْوَةٌ عَدْلٌ، وتقول: أَنْتِ طَلاَقٌ وأَنْتُمَا طَلاَقٌ وأَنْتُمْ طلاق.[١٠٢]

قال ابن مالك:

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرًا فَالْتَزَمُوا الإِفْرَادَ والتَّذْكِيرَا[١٠٣]

ومثل هذا ينطبق على صيغتي (فَعُولٌ وَفَعِيلٌ) اللتين يستوي فيهما المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، فتقول مثلاً: الرّجُل ظَهِيرٌ والْمَرْأَةُ ظَهِيرٌ والرَّجُلاَنِ ظَهِيرٌ والرجال ظَهِيرٌ، وتقول: هَذَا ضَيْفِي وَهَذِهِ ضَيْفِي وهَذَانِ ضَيْفِي وهَؤلاءِ ضَيْفِي.

وقال تعالى: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ﴾،[١٠٤] أي أنفسا. وقال جل وعلا: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾[١٠٥] أي أطفالاً. «واقتصر على الواحد؛ لأنّ الغرض بيان الجنس».[١٠٦]

---

(٩٩) *اللسان*، مادة (ظهر).

(١٠٠) سورة الشّعراء، آية رقم ٧٧.

(١٠١) سورة الحجر، آية رقم ٦٨.

(١٠٢) ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج١، ص ١٢.

(١٠٣) ابن مالك، *ألفية ابن مالك في النّحو والصّرف* (القاهرة: دار مصر للطباعة، د.ت.)، ص ٣٢.

(١٠٤) سورة النساء، آية رقم ٤.

(١٠٥) سورة غافر، آية رقم ٦٧.

(١٠٦) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٤، ص ١٧٧.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾،(١٠٧) قال الزّمخشري: «خصّ النّبي ﷺ لأنّ النّبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يَا فلاَنُ افْعَلُوا كِيت وَكِيت، إظهارًا لتفوقه واعتبارًا لترؤّسه وأنّه قدوة قومه ولسانهم والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدّون بأمر دونه فكان هو وحده في حكم كلّهم وسادا مسدّ جميعهم.»(١٠٨)

وقال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾،(١٠٩) فإنه وحدّ السّمع مع جمع القلوب لأمن اللّبس.(١١٠)

وقال تعالى أيضًا: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾، (١١١) والتّفريق لا يكون إلا بين اثنين. والتقدير: لا نفرّق بينهم.(١١٢) وقال تعالى أيضًا: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾.(١١٣)

قال الزّمخشري: «فإن قلت لم جمع الشّافع ووحّد الصّديق؟ قلت: لكثرة الشّفعاء في العادة وقلّة الصّديق... ويجوز أن يريد بالصّديق الجمع.»(١١٤) وقال تعالى أيضًا: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ﴾.(١١٥)

وقد بيّن الزّمخشري الحكمة في الإتيان بكلمة (وَليّ) مفردة بدلاً من مجيئها جمعًا (أولياء) حين قال: «فإن قلت قد ذكرت جماعة فهلاّ قيلَ: إنما أولياؤكم؟ قلت: أصل

---

(١٠٧) سورة الطلاق، آية رقم ١.
(١٠٨) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٤، ص ٥٥٢.
(١٠٩) سورة البقرة، آية رقم ٧.
(١١٠) البغدادي، *خزانة الأدب*، مج٧، ص ٥٦٣.
(١١١) سورة البقرة، آية رقم ١٣٦.
(١١٢) الثّعالبي، *فقه اللغة*، ص ٣٣٩.
(١١٣) سورة الشّعراء، الآيتان رقم ١٠٠، ١٠١.
(١١٤) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٣، ص ٣٢٢.
(١١٥) سورة المائدة، آية رقم ٥٥.

الكلام: إنّما وليّكم الله، فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله ﷺ والمؤمنين على سبيل التّبع، ولو قيل: «إنّما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبّع.»[١١٦]

وقال تعالى: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾[١١٧] فإن قلت: كيف يوصف الواحد بالجمع؟ وكيف يخبر به عنه؟ قلت: جوابهما أنه اسم عام[١١٨] ولهذا جاء ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾.[١١٩]

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾.[١٢٠] فقد أفرد الله كلمة الصلاة أولاً ثم جمعها في آخر الآيات. وقد بيّن الزّمخشري العلّة في ذلك حين قال: «فإن قلت كيف كرّر ذكر الصّلاة أولاً وآخرًا، (قلت): هما ذكران مُخْتَلفان فليس بتكرير، وُصِفُوا أولاً بالخشوع في صلاتهم، وآخرًا بالمحافظة عليها وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدوها في أوقاتها ويقيموا أركانها، ويُوكِلوا أنفسهم بالاهتمام بها، وربّما ينبغي أن تتمّ به أوصافها.» وأيضًا: «فقد وحّدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصّلاة أيّ صلاة كانت، وجمعت آخرا لتفاد المحافظة على أعدادها... وهي الصّلوات الخمس والوتر والسنن المرتّبة مع كلّ صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاسْتِسْقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضّحى والتّهجد وصلاة التّسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النّوافل.»[١٢١]

---

(١١٦) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج١، ص ٦٤٨.

(١١٧) سورة الحاقة، آية رقم ٤٧.

(١١٨) أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام، *شرح شذور الذهب*، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، ط٤ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م)، ص٢٠٣.

(١١٩) سورة البقرة، آية رقم ٢٨٥.

(١٢٠) سورة المؤمنون، الآيتان رقم ٢، ٩.

(١٢١) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٣، ص ١٧٧.

أما في الشّعر فقال العبّاس بن مرداس: (١٢٢)

فَقُلْنَا اسْلمُوا إنَّا أخُوكُم فَقَدْ بَرِئَتْ مِنَ الإِحَنِ الصُّدُورُ

قال ابن جنّي: فيجوز أن يكون جمع أخ قد حذفت نونه للإضافة، ويجوز أن يكون واحدًا وقع موقع الجماعة. . . »(١٢٣) وفي نظري أن الرّأي الثاني أوضح، وقال علقمة بن عبدة: (١٢٤)

بِهَا جِيفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبِيضٌ وأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ

والشّاهدَ فيه أنّ (جلدها) مفرد أريد به الجمع، أي جلودها. (١٢٥) وقال المسيب بن يزيد مناة الغنوي: (١٢٦)

لا تُنْكِرُوا الْقَتْلَ وَقَدْ سُبِينَا فِي حَلْقِكم عَظْمٌ وَقَدْ شُجِينَا

قال ابن يعيش: «أفرد الحلق والمراد حلوقكم لأمنِ اللّبس. »(١٢٧) ومما جاء في الشّعر على لفظ الواحد يراد به الجمع قول الشّاعر:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعِفُّوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ(١٢٨)

«والشّاهد فيهَ وضع البطن موضع البطون؛ لأنّه اسم جنس ينوب واحدهُ عن جمعه فأفرد اجتزاء بلفظ الواحد عن الجميع، لأنّه لّما أضاف البطن إلى ضمير الجماعة عُلِم أنّه أراد

---

(١٢٢) المبرّد، *المقتضب*، مج٢، ص ١٧٤؛ وانظر: ابن جنّي، *الخصائص*، مج٢، ص ٤٢٢.

(١٢٣) ابن جنّي، *الخصائص*، مج٢، ص ٤٢٢؛ وانظر: المبرّد، *المقتضب*، مج٢، ص ١٧٤.

(١٢٤) السيد أحمد صقر، *شرح ديوان علقمة الفحل* (القاهرة: المطبعة المحمدية، ١٩٣٥م)، ص ١٤؛ وانظر: سيبويه، *الكتاب*، مج١، ص ٢٠٩؛ وانظر: البغدادي، *الخزانة*، مج٧، ص٥٥٩؛ وانظر: المبرد، *المقتضب*، مج٢، ص ١٧٣.

(١٢٥) سيبويه، *الكتاب*، مج ١، هامش ص ٢٠٩.

(١٢٦) الزّمخشري، *أساس البلاغة*، تحقيق عبدالرحيم محمود (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، مادة (شجو)؛ وانظر: سيبويه، *الكتاب*، مج١، ص٢٠٩؛ وانظر: البغدادي، *الخزانة*، مج٧، ص ٥٥٩.

(١٢٧) ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٦، ص ٢٣.

(١٢٨) سيبويه، *الكتاب*، مج١، ص ٢١٠؛ وانظر: الفرّاء، *معاني القرآن*، مج١، ص ٣٠٧؛ مج٢، ص ١٠٢؛ وانظر: ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٦، ص ٢١؛ والبغدادي، *خزانة الأدب*، مج٧، ص ٥٥٩؛ والزّمخشري، *أساس البلاغة*، مادة (خمص).

الجمع إذ لا يكون للجماعة بطن واحد. »(١٢٩)

قال أبو ذؤيب الهذلي: (١٣٠)

وَلَوْ أَنَّني اسْتَوْدَعْتُهُ الشَّمْسَ لارْتَقَتْ إِلَـيْهِ الْمَـنَـايَا عَيْنُهَـا وَرَسُـولُهَـا

قال صاحب *اللّسان*: «أراد نفسها، وكان يجب أن يقول: أعينها ورسلها؛ لأنّ المنايا جمع، فوضع الواحد موضع الجمع. »(١٣١)

وقال جرير: (١٣٢)

تَدْعُـوكَ تَيْمٌ وتَـيْمٌ فِي قُرَى سَبَـأ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهمُ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ

فوضع جلد موضع جلود.

وقال الآخر: (١٣٣)

يَا عَاذِلَاتي لَا تِزِدْنَ مَلَامَـتِي إِنَّ الْـعَـوَاذِلَ لَسْـنَ لِي بِأَمِـيرِ

يعني لسن لي بأمراء. (١٣٤)

وقال أبو ذؤيب: (١٣٥)

أَلِـكْـنِي إِلَيْهَـا وَخَـيْرُ الـرَّسُـول أَعْـلَمُـهُـمْ بِنَـواحِـي الْخَـبَر

أراد بالرّسول، الرّسل.

---

(١٢٩) ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٦، ص ٢٢.

(١٣٠) أبـو سعيد الحسن بن الحسين السّكري، *كتاب شرح أشعار الهذليين*، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، مج١، شعر أبي ذؤيب الهذلي (القاهرة: مكتبة دار العروبة، مطبعة المدني)، ص٣٣.

(١٣١) ابن منظور، *اللسان*، مادة (عين).

(١٣٢) أبـو حزرة جرير بن عطية بن حذيفة، *ديوان جرير*، شرح محمد حبيب، مج١ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ص ١٣٠.

(١٣٣) ابن منظور، *اللّسان*، مادة (ظهر).

(١٣٤) ابن منظور، *اللّسان*، مادة (ظهر).

(١٣٥) السّكرى، *كتاب أشعار الهذليين*، مج١، ص ١١٣.

وقال ذو الرّمّة : (١٣٦)

وَمَيَّةُ أَحْسَنُ الثَّقَلَيْنِ وَجْهًا وَسَالِفَةً وأَحْسَنُه قَذَالا

فإذا نظرنا إلى بيت ذي الرّمة هذا نلاحظ «أنّه أفرد الضّمير مع قدرته على جمعه، وهذا يدلّك على قوّة اعتقادهم أحوال الموضع وكيف ما يقع فيها، ألا ترى أنّ الموضع موضع جمع وقد تقدّم في الأول لفظ الجمع فَتَرَكَ اللّفظ وموجب الموضع إلى الأفراد، لأنه مما يُؤلَّف في هذا المكان . »(١٣٧)

٢ ـ وضع الجمع موضع المفرد

قد ورد استعمال الجمع في موضع المفرد في كلام العرب، يقولون : شَابَتْ مَفَارِقُهُ وَهْوَ كَثِيرُ الْعَثَانين . . . (١٣٨) ويقولون : رَجُلٌ شَدِيدُ مَجَامِعِ الْكَتْفَيْنِ وَلاَ يَكُون لَهُ إلاَّ مجمع واحد . (١٣٩) ويقولون : «بُرمة أَعْشَار وثَوْبٌ أَهْدَامٌ وحَبْلٌ أَحْذَاقٌ . . . وأَرْضٌ سَبَاسِب، يُسَمّوْنَ كُلَّ بُقْعَةٍ سَبْسَبًا لاتّسَاعِهَا . »(١٤٠) قال سيبويه : (١٤١) «وسألته عن قول بعض العرب : آتِيكَ عَشِيّانَاتٍ وَمُغَيْرْبَانَاتٍ فقال : جعل ذلك الحين أجزاء، لأنّه حين كلّما تصوّبت فيه الشمس ذهب منه جزء، فقالوا : عشيّانات، كأنّهم سمّوا كلّ جزء منه عشيّة، ومثل ذلك قولك المفارق في مفرق، جعلوا المفرق مواضع، ثم قالوا : المفارق، كأنّهم سمّوا كل موضع مفرقًا . . . »

---

(١٣٦) غيلان بن عقبة ذو الرّمة، *ديوان ذي الرّمة*، تحقيق عبدالقدوس أبو صالح، ط٢ (بيروت : مؤسسة الإيمان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ١٥٢١ ؛ ورواية الديوان (خدًّا) بدلا من (وجهاً) وفي *اللّسان* (وجهًا) ؛ انظر : *اللسان*، مادة (ثقل).

(١٣٧) ابن جنّي، *الخصائص*، مج٢، ص ٤١٩ .

(١٣٨) ابن جنّي، *الخصائص*، مج٢، ص ٤٢٢ .

(١٣٩) الزّوزني، *شرح المعلقات السبع*، هامش ص ٣٢.

(١٤٠) السيوطي، *المزهر*، مج١، ص ٣٣٣.

(١٤١) سيبويه، *الكتاب*، مج٣، ص ٤٨٤ .

وقد جاء مثل هذا في القرآن الكريم، قال تعالى على لسان من حضره الموت: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا. ﴾،(١٤٢) قال الفرّاء: «فجعل الفعل كأنّه للجميع وإنّما دعا ربه.»(١٤٣) وخاطب الله بلفظ الجمع للتّعظيم كقوله:(١٤٤) «وإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُم.»

وقال تعالى أيضا: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾،(١٤٥) وإنّما أراد المسجد الحرام . قال الزّمخشري: «يعني المسجد الحرام، لقوله ﴿وعمارة المسجد الحرام﴾. وأمّا القراءة بالجمع ففيها وجهان: «أن يراد المسجد الحرام، وإنّما قيل مساجد، لأنّه قبلة المساجد كلّها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد، ولأنّ كل بقعة منه مسجد، والثّاني أن يراد جنس المساجد.»(١٤٦)

قال الفرّاء: «وهو يعني المسجد الحرام وحده، وقرأها مجاهد وعطاء بن رباح: مسجد الله . . . وربّما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى الرّجل على برذون، فتقول: قد أخذت في ركوب البراذين، وترى الرّجل كثير الدّراهم فتقول: إنّه لكثير الدرّهم، فأدّى الجمع عن الواحد والواحد عن الجمع.»(١٤٧)

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ﴾(١٤٨) وكان القاتل واحدًا،(١٤٩) فاستغني بالواحد على الجميع.(١٥٠) وقال تعالى: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ ﴾(١٥١) والمراد

---

(١٤٢) سورة المؤمنون، الآيتان رقم ٩٩، ١٠٠.

(١٤٣) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج٢، ص ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(١٤٤) الزّمخشري، *الكشاف*، مج١، ص ٢٩٤؛ مج٢، ص ٣٨٣؛ مج٣، ص ٢٠٢.

(١٤٥) سورة التوبة، آية رقم ١٧.

(١٤٦) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٢ (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص١٧٨.

(١٤٧) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج١، ص ٤٢٦.

(١٤٨) سورة البقرة، آية رقم ٧٢.

(١٤٩) الثّعالبي، *فقه اللغة*، ص ٣٤٠.

(١٥٠) الأخفش، *معاني القرآن*، مج٢، ص ٤٨٣.

(١٥١) سورة التّوبة، آية رقم ٦٦.

واحد.[١٥٢] وقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾[١٥٣] والمنادى واحد.[١٥٤] وقال تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾.[١٥٥] فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده؟ وهو قوله ﴿ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ ﴾ بعد قَوْله (قُلْ)؟

قلت: معناه: فإن لَمْ يَسْتَجيبُوا لَكَ وللمؤمنين وقال في موضع آخر: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ ﴾،[١٥٦] ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ كقوله:[١٥٧] (وَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُم). وقوله تعالى: ﴿ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾،[١٥٨] وهو واحد بدليل ارجع إليهم.[١٥٩]

كما جاء مثل ذلك في الشعر، قال جرير:[١٦٠]

قَالَ الْعَــوَاذِلُ مَا لِجَهْلِكَ بَعْــدَمَـا شَابَ الْمَـفَــارِقُ واكْتَسَــيْنَ قَتِــيرَا

ومن ذلك قولهم للبعير: ذُو عَثَانِين، كأنّهم جعلوا كلّ جزء منه عُثْنُونًا ونحو ذا كثير.

ويقولون للسيّد العظيم وللحاكم الكبير: انْظُرُوا فِي أَمْرِى، كَمَا أن الملوك والسّادة يقولون: «نَحْنُ فَعَلْنَا وَإِنَّا أَمَرْنَا».[١٦١]

---

(١٥٢) السّيوطي، *المزهر*، مج١، ص ٣٣٣.

(١٥٣) سورة الحجرات، آية رقم ٤.

(١٥٤) السّيوطي، *المزهر*، مج١، ص ٣٣٣.

(١٥٥) سورة هود، آية رقم ١٤.

(١٥٦) سورة القصص، آية رقم ٥٠.

(١٥٧) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٢، ص ٣٨٣؛ وانظر: محمد عبدالخالق عضيمة، *دراسات لأسلوب القرآن*، ق٣ (القاهرة: مطبعة حسان، د.ت.)، مج١، ص ٧٢.

(١٥٨) سورة النّمل، آية رقم ٣٥.

(١٥٩) السّيوطي، *المزهر*، مج١، ص ٣٣٣.

(١٦٠) جرير، *ديوان جرير*، ص ٢٨٩.

(١٦١) الثّعالبي، *فقه اللغة*، ص ٣٣٩؛ وانظر: *المزهر*، للسّيوطي، مج١، ص ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

وعلى منوال هذا قال الأعشى: (١٦٢)

وَمِـثْـلُكِ مُعْـجَـبَـةٌ بِالـشَّـبَـا ... بِ صَاكَ الْـعَـبِـيرُ بِأَجْسَـادِهَـا

يقصد بالأجساد جسدها.

وقال الفرزدق: (١٦٣)

فَيَا لَيْتَ دَارِي بِالْمَـدِينَـةِ أَصْبَحَتْ ... بِأَحْفَـارِ فَلْجٍ أَوْ بِسَيْفِ الْكَـوَاظِمِ

يريد: الحفر وكاظمة.

وقال الفرزدق أيضًا: (١٦٤)

وإذا ذَكَـرْتَ أَبَـاكَ أَوْ أَيَّامَـهُ ... أَخْـزَاكَ حَيْثُ تُقَـبِّـلُ الأَحْجَـارُ

يريد الحجر فإنّه جعل كل ناحية حجرًا، ألا ترى أنّك لو مسست كلّ ناحية منه لجاز أن تقول: «مَسَسْتُ الْحَجَرَ.»(١٦٥)

وقال ابن عصفور: «ووجه ذلك أنّ العرب قد توقع على الجزء اسم الكل، ألا ترى أنّك لو لمست ناحية من الحجر أو من الصّهوة أو من الجيد، لقلت لمست الحجر ولمست الصّهوة ولمست الجيد.»(١٦٦)

وقال عبيد: (١٦٧)

أَقْفَـرُ مِنْ أَهْلِهَا مَلْحُوبُ ... فَالْقُـطَّبِيَّاتُ فَالـذَّنُـوبُ

---

(١٦٢) أبو بصير ميمون بن قيس الأعشى، *ديوان الأعشى* (بيروت: دار صادر، ١٩٦٦م)، ص ٥٨.

(١٦٣) الفرزدق، *الدّيوان*، مج٢، ص ٣٠٧، وصدر البيت في الديوان هكذا: وَيَالَيْتَ زَوْرَاءَ الْمَدِينَةِ أَصْبَحَتْ....

(١٦٤) الفرزدق، *الديوان*، مج١، ص ٣٧٢.

(١٦٥) ابن جنّي، *الخصائص*، مج٢، ص ٤٢٢.

(١٦٦) ابن عصفور، *ضرائر الشعر*، ص ٢٥٦.

(١٦٧) عبيد بن الأبرص، *ديوان عبيد بن الأبرص*، (بيروت: دار بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص ٢٣؛ وانظر: ابن جنّي، *الخصائص*، مج٢، ص٤١٩.

قال ابن جنّي: «وإنّما القطّبيّة ماء واحد معروف.»(١٦٨)

وقال الشاعر:

أَلَا فَارْحَمُــوني يا إِلَــهَ مُحَمَّــدٍ فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلاً فَأَنْتَ لَهُ أَهْلُ(١٦٩)

فقد أسند إلى الفعل (ارحم) واو الجماعة مع أنه يخاطب الله سبحانه وتعالى وهو واحد وذلك للتعظيم، ومثله قول الشاعر:

فَأَنْتَ النَّــاسُ إِذْ فِيكَ الــذِي قَدْ حَوَاهُ النَّاسُ مِنْ وَصفٍ جَمِيلِ(١٧٠)

وقال امرؤ القيس:(١٧١)

يَزِلّ الْغُــلَامُ الخِفُّ عَنْ صَهَـوَاتِـهِ وَيُلْوِي بِأَثْــوابِ الْـعَنِيفِ الْمُثَقَّــلِ

قال الزّوزني: «وإنّما عبّر بصهواته ولا يكون له إلّا صهوة واحدة؛ لأنّه لا لبس فيه فجرى الجمع والتّوحيد مجرى واحدًا عند الاتّساع لأنّ إضافتها إلى ضمير الواحد يزيل اللّبس.»(١٧٢)

ونخلص في النهاية إلى أن في الإتيان بالمفرد وإرادة الجمع أو العكس مرونة واتساعًا وتنوعًا في التعبير واهتمامًا بالمعنى.

---

(١٦٨) ابن جنّي، *الخصائص*، مج٢، ص ٤١٩.

(١٦٩) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٣، ص ٢٠٢؛ وانظر: عضيمة، *دراسات لأسلوب القرآن*، ق٣، مج١، ص٧٣.

(١٧٠) عضيمة، *دراسات لأسلوب القرآن*، ق٣، مج١، ص ٧٣.

(١٧١) الزّوزني، *شرح المعلّقات السّبع*، ص٣٢؛ وانظر: *ديوان امرىء القيس*، ص٢٠ رواية الدّيوان (يَطِيرُ) بدلاً من (يَزِلُّ).

(١٧٢) الزّوزني، *شرح الملعقات السّبع*، ص ٣٢.

ثالثًا: التّبادُل بين المثنَّى والجمع

١ ـ وضع المثنَّى موضع الجمع

أشار ابن يعيش إلى أنّ القياس يعارض التعبير بالمثنَّى عن الجمع «وذلك أنّ الغرض من الجمع الدلاّلة على الكثرة، والتّثنية تدلّ على القلّة، فهما معنيان متدافعان، ولا يجوز اجتماعهما في كلمة واحدة.»(١٧٣) وابن يعيش وإن كان عارضَ هذا، إلا أنه أشار إلى أنه يمكن تثنية الجمع على تأويل الجماعتين والفرقتين حين قال: «وقد جاء شيء من ذلك عنهم على تأويل الأفراد قالوا: إبلان وغنمان وجِمالان، ذهبوا بذلك إلى القطيع الواحد وضمُّوا إليه مثله فثنّوه.»(١٧٤)

وهذا يتّفق مع ما جاء في *الكتاب*. انظر إلى سيبويه حين قال: «وقالوا إبلان، لأنّه اسم لم يكسّر عليه وإنّما يريدون قطيعين؛ وذلك يعنون، وقالوا: لقاحان سوداوان جعلوهما بمنزلة ذا، وإنما تسمع ذا الضرب ثم تأتي بالعلّة والنّظائر، وذلك لأنّهم يقولون: لقاح واحدة كقولك قطعة واحدة وهو في إبل أقوى، لأنه لم يكسر عليه شيء.»(١٧٥)

وقد ورد مثل ذلك في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾. (١٧٦) قال الزمخشري: «وإنما قيل: كانتا دون كنّ، لأنّ المراد جماعة السّموات وجماعة الأرض، ونحو قولهم: لقاحان سوداوان، أي جماعتان.»(١٧٧) وقال الأخفش: (١٧٨) «قال: ﴿كَانَتَا﴾ لأنّه جعلهما صِنفين كنحو قول العرب: هما لقاحان أسودان، وفي كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾. (١٧٩)

---

(١٧٣) ابن يعيش، *شرح المفصّل*، مج٤، ص ١٥٣.
(١٧٤) ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٤، ص ١٥٣.
(١٧٥) سيبويه، *الكتاب*، مج٣، ص ٦٢٣.
(١٧٦) سورة الأنبياء، آية رقم ٣٠.
(١٧٧) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٣، ص ١١٣.
(١٧٨) الأخفش، *معاني القرآن*، مج٢، ص ٤١٠.
(١٧٩) سورة فاطر، آية رقم ٤١.

وقد عُدَّ من التّعبير عن الجمع بالمثنّى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾،(١٨٠) فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئًا حسيرًا برجعه كرّتين اثنتين؟، قلت: معنى التّثنية التّكرير بكثرةٍ كقولك لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض.»(١٨١) قال ابن عقيل: «... ثمّ ارجع البصر كرّتين، أي كرّات، (فكرتين): ليس المراد به مرتين فقط، لقوله تعالى ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾،(١٨٢) أي مزدَجرًا وهو كليل ولا ينقلب البصر مزدجرًا كليلاً من كرّتين فقط، فتعيّن أن يكون المراد بكرّتين: التّكثير لا اثنين فقط.»(١٨٣)

ومن التّعبير بالمثنّى عن الجمع قول الرسول ﷺ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالشَّاةِ الْعائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ.»(١٨٤) فقد ثنّى كلمة «الغنم» وهي جمع. انظر إلى ابن يعيش كيف وضّح ذلك حين قال: «إنه شبَّه المنافق وهو الذي يظهر أنّه من قوم وليس منهم بالشّاة العائرة وهي المترددة بين الغنمين أي بين القطيعين لا تعلم من أي القطيعين هي؟»(١٨٥)

ومن ذلك قول الشاعر:

هُمَا إِبِلَانِ فِيهِمَا مَا عَلِمْتُم ... فَعَنْ أَيِّهَا مَا شِئْتُمُ فَتَنَكَّبُوا (١٨٦)

---

(١٨٠) سورة الملك، آية رقم ٤.

(١٨١) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٤، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ١٣٥.

(١٨٢) سورة الملك، اية رقم ٤.

(١٨٣) بهاء الدين عبدالله بن عقيل، *شرح ابن عقيل على الألفية*، مج٣، ط١٥ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م)، ص ٥٤.

(١٨٤) أبو الحسن مسلم بن الحجاج، *الجامع الصحيح*، مج٨، *كتاب صفات المنافقين وأحكامهم* (بيروت: دار الفكر، د.ت)، مج٨، ص ١٢٥، حديث ١٦.

(١٨٥) ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٤، ص ١٥٥.

(١٨٦) عبدالملك بن قريب الأصمعي، *الأصمعيّات*، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ص ١٦٧؛ وانظر: ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٤، ص ١٥٤؛ والبغدادي، *الخزانة*، مج٧، ص ص ٥٦٤ - ٥٦٥. وقد =

«والشَّاهد في البيت قوله: (إِبِلَانِ) حيث ثَنَّى اسم الجمع على تأويل فرقتين وجماعتين.»(١٨٧)

وقال عمرو بن العداء الكلبي:(١٨٨)

لأَصْبَحَ الْحَيُّ أَوْ بَادًا وَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَ التَّفَرُّقِ فِي الْهَيْجَا جِمَالَيْنِ

وثنَّى الجِمال لأنه جعلها صنفين، قال ابن يعيش: فالتّثنية تَدُلُّ على افتراقها قطيعين، ولو قال: لقاح أو جمال لفهم منه الكثرة إلاّ أنّه لا يدلّ على أنها مفترقة قطيعين.»(١٨٩)

وقال الفرزدق:(١٩٠)

وَمَا قُمْتُ حَتّى كَادَ مَنْ كَانَ مسلمًا لِيَلْبَسَ مُسْوَدَى ثِيَابِ الأَعَاجِمِ

يريد: مسودات ثياب الأعاجم.(١٩١)

وقال الآخر:

كَأَنَّ حُمُولَهُمْ لَمَّا الْتَقَيْنَا ثَلاثَةُ أَكْلُبٍ يَتَطَارَدَانِ(١٩٢)

يريد: يتطاردن.

نسب الأصمعي البيت إلى عوف بن عطية بن الخريج التميمي ورواه هكذا:

هُمَا إِبِلَانِ فِيهِمَا مَا عَلِمْتُمْ فَأَدّوهُمَا إِنْ شِئْتُمْ أن تُسَالِمَا

(١٨٧) ابن يعيش، شرح *المفصل*، مج٤، هامش ص ١٥٤.

(١٨٨) ابن يعيش، شرح *المفصل*، مج٤، ص ١٥٣؛ البغدادي، *الخزانة*، مج٧، ص ٥٨٠.

(١٨٩) ابن يعيش، شرح *المفصل*، مج٤، ص ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(١٩٠) الفرزدق، *ديوان الفرزدق*، مج٢، ص ٣٠١؛ وانظر: *ضرائر الشّعر* لابن عصفور، ص ٢٥٥، والرواية المذكورة رواية ابن عصفور، أما رواية الديوان فهكذا:

فَمَا قُمْت حَتّى هَمَّ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا لِيَلْبَس مُسْوَدًّا ثِيَابَ الأَعَاجِمِ

وعلى رواية الديوان لا شاهد فيه.

(١٩١) ابن عصفور، *ضرائر الشعر*، ص ٢٥٥.

(١٩٢) ابن عصفور، *ضرائر الشعر*، وفي البغدادي، *الخزانة*، مج٧، ص ٣٩ ذكرت الكلمة الأخيرة في البيت هكذا: (مُتَطَارِدانِ) لا كما ذكرت (يَتَطَارَدَانِ).

وقال الفرزدق: (١٩٣)

رَأَوْا جَبَلاً فَوْقَ الْجِبَالِ إِذَا الْتَقَتْ رُءُوسُ كَبِيرَيْهِنَّ يَنْتَطِحَانِ

«فقال «رءوس» ثم قال: ينتطحان وذا نحو قول العرب: الجُزُرَات والطرقات فيجوز في ذا أن تقول (طرقان) للاثنين وجُزُران للاثنين.»(١٩٤)

وقد جعل النّحاة (حَنَانَيْكَ) وأخواته من التعبير بالمثنى عن الجمع، قال السيرافي: «اعلم أن التثنية في هذا الباب الغرض منها التكثير، وأنّه شيءٌ يعود مرة بعد أخرى، ولا يراد بها اثنان فقط من المعنى الذي يذكر، والدّليل على ذلك أنّك تقول: (ادخلوا الأوّل فالأوّل)، فإنّما غرضك أن يدخل كلٌّ، وجئت بالأوّل فالأوّل، حتى تعلم أنّه شيء بعد شيء... وهذا المثنى كلّه غير متصرّف أي أنّه لا يكون إلا مصدرًا أو اسمًا في موضع الحال، وإنّما لم يتمكّن لأنّه دخله بالتّثنية لفظا معنى التّكثير.»(١٩٥)

٢ ـ وضع الجمع موضع المثنّى

ورد استعمال الجمع وإرادة المثنّى كثيرًا في كلام العرب، نجدهم يقولون عند ذكر الْحَسَنَيْنِ — مثلاً — كَرّمَ الله وُجُوهَما،(١٩٦) ويقولون: رَجُلٌ عَظِيمُ الْمَنَاكِبِ، وَلاَ يَكُونُ لَهُ إلاَّ مَنْكِبَانِ.(١٩٧)

جاء في *لسان العرب* (مادّة نَكَبَ): ورجل شديد المناكب، قال اللّحياني: هو من الواحد الذي يفرّق فيجعل جميعًا، قال: والعرب تفعل هذا كثيرًا،(١٩٨) ومن ذلك قولهم:

---

(١٩٣) الفرزدق، *الديوان*، مج٢، ص ٣٣٢، وفي الديوان (دَقّ) بدلاً عن كلمة (فَوْقَ)؛ وانظر: الأخفش، *معاني القرآن*، مج٢، ص ٤١٠.

(١٩٤) الأخفش، *معاني القرآن*، مج٢، ص ٤١٠.

(١٩٥) سيبويه، *الكتاب*، مج١، هامش ص ٣٥٢.

(١٩٦) الثّعالبي، *فقه اللغة*، ص ٣٣٨.

(١٩٧) الزّوزني، *شرح المعلقات السبع*، ص ٣٣.

(١٩٨) ابن منظور، *اللسان*، مادة (نكب).

امْرَأَةٌ ذَاتُ أَوْرَاكٍ وَمَآكِم .(١٩٩)

وقد عقد سيبويه لذلك بابًا سماه: «هذا باب ما لفظ به مما هو مثنّى، كما لفظ بالجمع قال فيه:(٢٠٠) «وهو أن يكون الشيئان كل واحد منهما بعض شيء مفرد من صاحبه، وذلك قولك: مَا أَحْسَن رَءُوسَهُمَا وأَحْسَن عَوَالِيهِمَا، وقال عز وجل: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.(٢٠١) ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا﴾(٢٠٢) فرّقوا بين المثنّى الذي هو كل شيء على حدة، وبين ذا وقال الخليل: نظيره قولك: فَعَلْنَا وأَنْتُمَا اثْنَانِ، فتكلّم به كما تكلّم به وأنتم ثلاثة. وقد قالت العرب في الشيئين اللّذين كل واحد منهما اسم على حدة وليس واحد منهما بعض شيء كما قالوا في ذا، لأنّ التّثنية جمع، فقالوا كما قالوا: فَعَلْنَا، وزعم يونس أنّهم يقولون: ضَعْ رِحَالَهُمَا وغِلْمَانَهُمَا وَإِنَّمَا هُمَا اثْنَانِ. . . »(٢٠٣)

وقد سمّى ابن الشجري التّثنية التي وردت بصورة الجمع تثنية معنويّة، وبيّن أنها «تثنية آحاد ما في الجسد كالأنف والوجه والبطن والظّهر، تقول: ضربت رءوس الرجلين وشققت بطون الجملين ورأيت ظهوركما وحيّ الله وجوهكما فتجمع وأنت تريد رأسين وبطنين وظهرين ووجهين. . . »(٢٠٤)

وقد ورد التّعبير بالجمع عن المثنّى كثيرًا في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾،(٢٠٥) يريد فإن كان له أخوان. انظر إلى الأخفش بيّن ذلك بقوله: «فيذكرون أنّ الأخوة اثنان، ومثله: إنّا فَعَلْنَا، وأَنْتُمَا اثْنَان ـ وقد يشبه ما كان من شيئين وليس مثله، ولكن

---

(١٩٩) السّيوطي، *المزهر*، مج١، ص ٣٣٣.
(٢٠٠) سيبويه، *الكتاب*، مج٣، ص ٦٢١.
(٢٠١) سورة التحريم، آية رقم ٤.
(٢٠٢) سورة المائدة، آية رقم ٣٨.
(٢٠٣) سيبويه، *الكتاب*، مج٣، ص ص ٦٢١ ـ ٦٢٢.
(٢٠٤) ابن الشّجري، *الأمالي الشجرية*، مج١، ص ص ١١ ـ ١٢.
(٢٠٥) سورة النساء، آية رقم ١١.

اثنين قَدْ جُعِلَ جماعة . »(٢٠٦)

وقال تعالى : ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ .(٢٠٧) ولم يقل يديهما، وقد وضّح الفراء ذلك بقوله : «وإنّما قال (أيْدِيَهُما)؛ لأنّ كلّ شيء موحد من خلق الإنسان إذا ذكر مضافًا إلى اثنين فصاعدًا جُمِعَ . فقيل : قد هشمت رءوسهما وملأت ظهورهما وبطونهما ضربًا . »(٢٠٨) وبيّن الزّمخشري أنّ المراد بقوله أيديهما : يديهما وشبّهه بقوله تعالى ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حيث قال «اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف . . . »،(٢٠٩) وقال ابن يعيش : «فإنّما جمع ؛ لأنّ المراد الأيْمان، وقد جاء في قراءة عبدالله بن مسعود : «فاقطعوا أيمانهما . »(٢١٠) وقال تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ﴾(٢١١) وقوله عزّ وجلّ أيضًا ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾(٢١٢) قال الفرّاء في تفسير هاتين الآيتين : «وقوله ﴿اخْتَصَمُوا﴾ ولم يقل اختصما؛ لأنّهما جَمْعَانِ لَيْسَا برَجُلَيْنْ، ولو قيل : اختصما كان صوابا ومثله : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾(٢١٣) يذهب إلى الجمع، ولو قيل : اقْتَتَلَتَا لجاز، ويذهب إلى الطائفتين،(٢١٤) وقال تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾(٢١٥) فجعله — كما أشار الأخفش — جماعة، لأنّهما اثنان من اثنين .(٢١٦) وقال تعالى أيضًا ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا

---

(٢٠٦) الأخفش، *معاني القرآن*، مج١، ص ٢٢٩ .

(٢٠٧) سورة المائدة، آية رقم ٣٨ .

(٢٠٨) الفرّاء، *معاني القران*، مج١، ص ٣٠٦ .

(٢٠٩) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج١، ص ص ٦٣١ - ٦٣٢ .

(٢١٠) ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٤، ص ١٥٦ .

(٢١١) سورة الحج، آية رقم ١٩ .

(٢١٢) سورة الحجرات، آية رقم ٩ .

(٢١٣) سورة الحجرات، آية رقم ٩ .

(٢١٤) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج٢، ص ٢٢٠ .

(٢١٥) سورة التحريم، آية رقم ٤ .

(٢١٦) الأخفش، *معاني القرآن*، مج٢، ص ٥٠٣ .

عَلَىٰ بَعۡضٍ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ . (٢١٧) ويبدو لي أن في هذه الآية تبادلاً بين المثنى والجمع فقد أسند إلى الأفعال (تسوّر، ودخل، وقال) واو الجماعة مع أن الملكين اثنان، فقد جاء في هامش *البحر المحيط* «أنّ الله بعث إليه — أي داود — ملكين في صورة إنسانين، وطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرّاس فتسوّروا عليه المحراب فلم يشعر إلاّ وهما بين يديه جالسان . »(٢١٨)

وقال تعالى أيضًا : ﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ ﴾ . (٢١٩) قال أبو حيان : «ومعكم قيل من وضع الجمع موضع المثنّى أي معكما وقيل هو على ظاهره من الجمع والمراد موسى وهارون ومن أرسلا إليه، وكان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يرجح أن يكون أريد بصورة الجمع المثنى والخطاب لموسى وهارون فقط، قال لأنّ لفظة (مع) تباين من يكون كافرًا بأنّه لا يقال الله معه، وعلى أنّه أريد بالجمع التثنية حمله سيبويه رحمه الله وكأنّهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع إذ كان ذلك جائزًا أن يعامل به الواحد لشرفه وعظمته . »(٢٢٠)

وقال تعالى أيضًا ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ ﴾ ، (٢٢١) «جمع الضمير في ﴿يَأۡتُواْ﴾ ، وما بعده وإن كان السابق مثنّى، فقيل هو عائد على الشّاهدين باعتبار الصنف والنّوع، وقيل : لا يعود عليهما بخصوصهما بل على الناس الشهود، والتقدير: ذلك أدنى أن يحذر الناس الخيانة فيشهدوا بالحق . »(٢٢٢)

---

(٢١٧) سورة ص، الآيتان رقم ٢١ ـ ٢٢ .
(٢١٨) أبوحيان، *البحر المحيط*، مج٨، هامش ص ٣٨٨ .
(٢١٩) سورة الشعراء، الآيتان رقم ١٥، ١٦ .
(٢٢٠) أبو حيان، *البحر المحيط*، مج٧، ص ٨ .
(٢٢١) سورة المائدة، آية رقم ١٠٨ .
(٢٢٢) أبوحيان، *البحر المحيط*، م٤، ص ٤٧ ؛ وانظر: عضيمة، *دراسات لأسلوب القرآن الكريم*، ق٣، مج١، ص ص ٦٨ ـ ٦٩ .

وقال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾،(٢٢٣) جمع الضّمير في كلمة ﴿حكمهم﴾ على الرغم من أن المتقدم اثنان فربما وقع الجمع موقع التّثنية مجازًا، أو لأنّ التثنية جمع، وأقلّ الجمع اثنان.

وقال تعالى أيضا: ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾،(٢٢٤) «أعاد الضمير جمعا، لأن كل طائفة منهم جمع.»(٢٢٥)

وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾،(٢٢٦) قال الزّمخشري: «لمّا كان آدم وحوّاء عليهما السلام أصلي البشر والسّببين اللّذين منهما نشأوا وتفرّعوا جُعِلا كأنّهما البشر في أنفسهما، فخوطبا مخاطبتهم، فقيل: ﴿فإمَّا يَأتِيَنَّكَمْ﴾ على لفظ الجماعة»،(٢٢٧) وقال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ . . . . ﴾،(٢٢٨) فقال ﴿فيهن﴾ على الرّغم من أنهما جنّتان، والذي دلّ على ذلك تقدّم الجنّتين اللّتين ذكرهما الله بقوله: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾.(٢٢٩)

وقال تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا . . . ﴾.(٢٣٠) قال ابن يعيش: «إنّما عبّروا بالجمع والمراد التثنية من حيث إن التثنية جمع في الحقيقة، ولأنّه مما لا يلبس ولا يشكل، لأنّه قد علم أن الواحد لا يكون له إلا رأس واحد أو قلب واحد فأرادوا الفصل

---

(٢٢٣) سورة الأنبياء، آية رقم ٧٨.
(٢٢٤) سورة الأنعام، آية رقم ١٥٦.
(٢٢٥) أبو حيان، *البحر المحيط*، مج٤، ص ٢٥٧؛ وانظر: *دراسات لأسلوب القرآن* لعضيمة، ق٣، مج١، ص ٦٩.
(٢٢٦) سورة طه، آية رقم ١٢٣.
(٢٢٧) الزّمخشري، *الكشّاف*، مج٣، ص ٢٩٣. وانظر: عضيمة، *دراسات لأسلوب القرآن*، ق٣، مج١، ص ٦٩.
(٢٢٨) سورة الرحمن، آية رقم ٥٦.
(٢٢٩) سورة الرحمن، آية رقم ٥٠.
(٢٣٠) سورة التحريم، آية رقم ٤.

بين النوعين فشبهوا هذا النوع بقولهم: نَحْنُ فَعَلْنَا، وإنْ كانا اثنين في التعبير عنهما بلفظ الجمع، وكان الفرّاء يقول: إنّما خصّ هذا النوع بالجمع نظرًا إلى المعنى، لأنّ كلّ مافي الجسد منه شيء واحد، فإنّه يقوم مقام شيئين، فإذا ضمّ إلى ذلك مثله فقد صار في الحكم أربعة والأربعة جمع، وهذا من أصول الكوفيّين الحسنة، ويؤيّد ذلك أنّ مافي الجسد منه شيء واحد ففيه الديّة كاملة كاللّسان والرّأس، وأما مافيه شيئان فإنّ فيه نصفَ الديّة.»(٢٣١)

وعُدَّ من ذلك قولُ ابن النّبيه: (٢٣٢)

سُودٌ سَوَالِفُهُ لُعْسٌ مشَارِقُهُ نُعْسٌ نَوَاظِرُهُ خُرْسٌ أَسَاوِرُه

وقول الأسود بن يعفر: (٢٣٣)

أَتَانِي منَ الأَنْبَاءِ أَنَّ مُجَاشِعًا وَآل فَقِيمٍ والْكَرَادِيس أَصْفَقُوا

يعني بالكرادَيس: معاوية وقيسًا ابني مالك على الرّغم من أنهما اثنان وكان يقال لهما: الكردوسان.

وهكذا فإنّ هذه الشّواهد تثبت مجيء المثنّى في موضع الجمع أو العكس، وهذا يدل على مرونة اللغة واتساعها، واهتمامها بالمعنى.

الخاتمة

(١) يتضح مما سبق اتساع كثرة الاستعمال من كلام العرب شعرًا ونثرًا ومن القرآن الكريم بدليل التّبادل بين المفرد والمثنّى من جهة وبين المفرد والجمع من جهة ثانية، وبين المثنّى والجمع من جهة ثالثة.

---

(٢٣١) ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٤، ص ١٥٥.

(٢٣٢) كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد بن النبيه، *ديوان ابن النبيه المصري*، تحقيق عمر محمد الأسعد، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٦٩م)، ص ٩٢.

(٢٣٣) ابن عصفور، *ضرائر الشعر*، ص ٢٥٧.

وكما رأينا فإنّ هذا الاستعمال يتوقف على وضوح المعنى واستقامته، وذلك بأنْ يتقدم شيء يدلّ على المعنى، أو قل إنّ قرائن الأحوال والملابسات تشير إلى المعنى المقصود أو أن خروج هذا الاستعمال على مقتضى الظّاهر لا يؤدي إلى التباس.

انـظر إلى ابن يعيش كيف وضّـح البيت: «كأنّه وجه تركيّين قد غضبا. . . الخ» بقوله: «وذلك لوضوح المعنى، إذ كلّ واحد له شيء واحد من هذا النّوع فلا يشكل، فأتى بلفظ الإفراد إذ كان أخفّ. . . »[٢٣٤]

(٢) وبتتبعنا للنّصوص الكثيرة التي أوردناها للتّدليل على ظاهرة التّبادل بين المفرد والمثنّى والجمع، اتضح لنا أنّ هناك معانيَ وعللاً وأغراضًا وراء استعمال هذه الظاهرة، وهذا ما نحاول أن نفصّله فيما يلي.

(٣) فالتعبير بالمفرد عن المثنى يحدث:

(ا) إما لكون الشيئين صارا لا يغني أحدهما عن الآخر أو أنهما نزلا منزلة شيء واحد، أو أن المقصود بهما منفعة واحدة.

(ب) أو يجعل الضمير للواحد مع أن المتقدم مثنى ذهابًا بالضمير إلى المعنى دون اللفظ.

(جـ) أو يكون القصد الخفّة والاختصار.

(د) أو يكون القصد التّعظيم وذلك بأنْ يتقدم ذكر اثنين ثمّ يرجع الضّمير لأحدهما، لأن الآخر ذُكر فقط للتعظيم كلفظ الجلالة في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ . . . ﴾. [٢٣٥]

قال الفرّاء: «. . . إن شئت جعلته من ذلك: مما اكتفى ببعضه عن بعض، وإن

---

(٢٣٤) ابن يعيش، *شرح المفصل*، مج٤، ص ١٥٧؛ انظر: *أمالي ابن الشّجري*، مج١، ص ١٢.

(٢٣٥) سورة التوبة، آية رقم ٦٢.

شئت جعلت الله تبارك وتعالى في هذا الموضع ذكر لتعظيمه والمعنى للرّسول ﷺ . »(٢٣٦)

(٤) أما التعبير بالمثنى عن المفرد فإن الغرض منه ينحصر في الآتي :

(ا) أن العرب من عادتهم إجراء خطاب الواحد مجرى خطاب الاثنين : قال الفرّاء : «ونرى ذلك منهم أنّ الرّجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرّفقة أدنى ما يكونون ثلاثة فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى الشعراء أكثر شيء قيلاً : يا صاحبيّ، يا خليليّ . . . . »(٢٣٧)

(ب) إرادة التّأكيد بتقسيم الشيء إلى شيئين، قال أحد الباحثين : «ووجه إرادة التأكيد بتقسيم الشيء إلى شيئين وتسمية كلّ منهما باسمه والإشعار بإرادة تكرير الفعل، وأنّ الفعلين امتزجا وصار حضور أحدهما حضورًا للآخر . »(٢٣٨)

(٥) إنّ التّعبير بالمفرد عن الجمع لا يخرج عن الآتي :

(ا) قد يكون الغرض منه الاختصار.

(ب) وقد يكون لأنّ الجمع اسم جنس ينوب مفرده عنه .

(جـ) وقد يكون الغرض منه التّعظيم .

(د) أو يكون الغرض منه بيان الجنس .

(هـ) أو يكون لأنّ الكلمة المفردة أخرجت مخرج التّمييز، قال المبرد : «وأما قول الله عز وجل ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾، وقوله ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ﴾ فإنّه أفرد هذا، لأن مخرجهما مخرج التمييز . »(٢٣٩)

(٦) وأما وضع الجمع موضع المفرد، فبالإضافة إلى أنّ العرب قد توقع على الجزء اسم

---

(٢٣٦) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج ١، ص ٤٣٤ .

(٢٣٧) الفرّاء، *معاني القرآن*، مج ٣، ص ٧٨ .

(٢٣٨) مطلوب، *القزويني وشروح البلاغة*، ص ٥٥٣ .

(٢٣٩) المبرّد، *المقتضب*، مج ٢، ص ١٧٣ .

الكلّ، فإنّ الغرض الأساسي منه هو التّعظيم.

قال أحد الباحثين: «وصيغة الجمع قد تشعر بمعاني التّعظيم والإجلال، حينما يوضع ما للجماعة للواحد، وقد أشار النحاة إلى هذا المعنى في الضمائر، وقالوا: إنّ ضمير جمع المتكلّمين المتّصل والمنفصل قد يأتي للمعظم نفسه.»(٢٤٠) وهذا ما أشار إليه صاحب *البحر المحيط* في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾،(٢٤١) وذلك حين قال: قِيلَ إبراهيم وحده، وقيل آدم وحده، والعرب تخاطب الرّجل العظيم الذي له أتباع مخاطبة الجمع.»(٢٤٢)

(٧) وأمّا التّعبير بالمثنّى عن الجمع فإنّه يأتي على تأويل الجماعتين والفرقتين، وقد جعل النحاة من ذلك باب حنانيك وأخواته وهو يفيد التّكثير.

(٨) أما وضع الجمع موضع المثنّى فإنّه يكون للآتي:

(ا) للتّقارب بين التّثنية والجمع، قال ابن الشّجري: «وإنّما استحسنوا ذلك لما بين التثنية والجمع من التّقارب من حيث كانت التثنية عددًا تركّب من ضمّ واحد إلى واحد وأول الجمع وهو الثلاثة تركب من ضم واحد إلى اثنين.»(٢٤٣) «وذلك لأنّ التّثنية جمع»(٢٤٤) كما قال سيبويه.

(ب) لأنّ الجمع أسهل من التّثنية. قال ابن الشّجري: «فجمعوا الأوّل كراهة أن يؤتوا بتثنيتين متلاصقتين في مضاف ومضاف إليه، والمتضايفان يجريان مجرى الاسم الواحد، فلمّا كرهوا أن يقولوا «مَا أَحْسَنَ وَجْهَي الرَّجُلَيْنِ»

---

(٢٤٠) محمد أبو موسى، *البلاغة القرآنية في تفسير الزّمخشري* (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ت)، ص ٢٢٧.

(٢٤١) سورة البقرة، آية رقم ١٩٩.

(٢٤٢) أبو حيان، *البحر المحيط*، مج٢، ص ١٠٠.

(٢٤٣) ابن الشّجري، *الأمالي الشّجرية*، مج١، ص ١٣.

(٢٤٤) سيبويه، *الكتاب*، مج٣، ص ٦٢٢.

فيكونوا كأنّهم قد جمعوا في اسم واحد بين تثنيتين غيّروا لفظ التثنية الأولى بلفظ الجمع إذ العلم محيط بأنّه لا يكون للاثنين أكثر من وجهين، فلمّا أمنوا اللّبس في وضع الوجوه موضع الوجهين استعملوا أسهل اللفظين. »(٢٤٥)

وخلاصة القول فإنّ ظاهرة التّبادل بين المفرد والمثنّى والجمع تُثبت بوضوح مدى ما تتمتّع به قواعد اللّغة العربيّة من مرونة واتساع ومن تنوّع في التعبير عن المقصود واهتمام بالمعنى واستقامته.

(٢٤٥) ابن الشّجري، *الأمالي الشجرية*، مج١، ص ١٣.

Alternation between the Singular, Dual and Plural in the Arabic Language

Duffalla Abdalla Suleiman
Associate Professor, Department of Arabic, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Languages other than Arabic usually distinguish between the singular, dual and plural forms. While the Arabic language shows exchange or equivalence between the three forms expressing a singular, a dual and a plural. Examples from the Arabic language illustrate this phenomenon. This research deals with the reasons and causes that have their effect on this phenomenon. The research concludes that this phenomenon proves the elasticity, variety and richness in expression of the Arabic language, and this exchange between the three forms is only used when the importance and precision of the meaning calls for it.